البوسطة

لن أكتب كثيرًا عن الدكتور طارق البكري، فهو شخصية معروفة أنه أستاذ جامعي، وأديب رائع، كتب القصة للكبار وللأطفال، فاكتسب شهرة واسعة، وإن كان تميزه واضحًا في الكتابة للأطفال، حيث ترجمت بعض أعماله، الّتي أثرت المكتبة العربية، إلى أكثر من لغة أجنبية.

لكنني سأكتب في هذه العجالة عن روايته الأخيرة للناشئة، والّتي تحمل عنوان "البوسطة"، ووصلتني عبر البريد الإلكتروني.

المقصود بـ(البوسطة)، كما جاء في الرواية، هو الباص الذي يقل طلاب المدارس، والبوسطة أعتقد أنها مأخوذة من الكلمة الإنجليزية (Post)، والّتي تعني النقل، ومنها مكتب البريد الذي ينقل الرسائل وغيرها، مع أن (البوسطة) مصطلح سيء في الثقافة الشعبية الفلسطينية،

obeikandl.com

وهـو الـسيارة المغلقـة الّتـي تنقـل المعتقلـين والأسرى بـين المعـتقلات والسجون.

قسّم الدكتور البكري روايته إلى ثماني عشرة لوحة، ليروي لنـا حكايـة بطولة تتوزع عـلى أكثـر مـن شـخص، أو سـاهم فيهـا أكثـر مـن شـخص؛ حكاية كفاح تحمل أكثر من قيمة تربوية، وقِيَمٍ تعليمية، يـستمدها الكبـار من سيرة الآباء والأجداد، وإن كانت البطولة الرئيسة فيها للسارد، الذي تكلّم في الرواية بلغة الـ (أنا).

تبدأ الرواية بلوحة: "بيتنا الجميل"،حيث يصف الطفل بيتهم الريفـي الجميل الذي تحيط به حديقة جميلة، مـزروع فيهـا ورود وأشـجار وبعـض الخضروات للاستعمال البيتي، لكن اللافت فيها هـو شـجرة التفـاح الّتـي زرعتها الجدّة لأب، ومدى حرص الوالد على هذه الشجرة، الّتي شاخت بعد أن أعطت ثمارها اللذيذة لسنوات طويلة، ومـع أن الـشلل بـدأ ينخـر أغصانها، إلا أن الأب رفض التفريط بهـا، أو نقلهـا مـن مكانهـا إلى مكـان خلف البيـت مـثلًا، كـما اقـترح الأحفـاد، وبقيـت مكانهـا إلى أن "جـاءت عاصفة خفيفة وقلعتها من جذورها الميتة".

وإذا كان بيت الإنسان بمثابة جنته في الحياة الـدنيا، وأن المـوت نتيجـة حتمية لكلّ المخلوقات الحيّة، إلا أن الرسالة التربوية للناشئة سامية جدًّا، وهي ضرورة رعايـة الآبـاء والأجـداد في شـيخوختهم حتـى يتوفـاهم الله

خالقهم، كما أنها تحمل أكثر من رسالة تعليمية، تتمثل في زراعة حديقة المنزل، والأرض المحيطة به، كما هي البيوت في القرى، وفي ذلك تجميل للطبيعة، ودعم للاقتصاد المنزلي، لن يكون على حساب العمل للكبار، أو الدراسة للأطفال والطلاب.

أما اللوحة الثانية: "فراشات الحديقة"، فهي تتغنى بجمال الطبيعة، وبجمال هذه الحشرة متعددة الألوان، والّتي تضفي جمالًا خلابًا على الطبيعة في فصل الربيع، وعلى حدائق المنازل، لكنها فقدت رونقها، وقوتها، وجمالها، عندما "حبسها" الطفل الراوي في غرفته، ولم تستعد عافيتها إلا بعد أن أطلق سراحها، وفي هذه اللوحة دعوة للحرية.

اللوحة الثالثة: "مناسبة سعيدة"، والمناسبة هي مرور 15عامًا على زواج الوالدين، وهي مناسبة يشارك فيها الزوجان والأبناء، وربما بعض الأهل والأصدقاء المقربين، وفيها تذكير للأبناء- خصوصًا الأطفال منهم- بأن للآخرين، أيضًا، مناسباتهم الّتي علينا أن نحترمها، وقد تكون لنا علاقة مباشرة بهذه المناسبات، كزواج الوالدين مثلًا، فعلينا أن نشاركهم بها.

اللوحة الرابعة: "العم جميل"، وهو الرجل الذي يعتني بحديقة المنزل، والذي يعتبر واحدًا من أبناء الأسرة، وحتى الكلّب يتصرف هو الآخر كواحد من أبناء الأسرة، وفي هذه اللوحة عودة إلى نفور الأطفال

من المدرسة عند ذهابهم إليها للمرة الأولى، ولكسر هذا النفور، فإن الأهل زوّدوا المعلمة بسيارة (دمية) لتقدمها هدية لابنهم الطفل دون علمه، وكأنها هدية من المعلمة، غير أن الأخ الأصغر كشف هذا السر، ما جعل شقيقه التلميذ ينفر من اللعبة، ويستعملها بقسوة حتى حطمها لأنه يريد هدية من المعلمة (أذكر أن هذا المضمون مرّ معي في قصة أخرى للمؤلف نفسه، وتكراره لا ينتقص من قيمة العمل الإبداعي، بل قد يكون ضروريًّا لتكريس فهمه، والعمل به)، وفي هذه اللوحة تعليم للأطفال بأن لا يخافوا من المدرسة، وعليهم أن يقبلوا عليها طواعية، وضرورة احترام الكبير، والرفق بالحيوان، كما أن فيها توجيها غير مباشر للأهل وللمدرسة في كيفية استقطاب الأطفال الجدد للمدرسة.

وفي اللوحات (5+6+7+8) تعريف للتلاميذ على أجواء المدرسة، كالتعرف إلى زملاء جدد، وبناء صداقات جديدة، ووجود نشاطات وألعاب ككرة القدم، والكشافة الّتي تربي روح الجندية في الطلاب، والتعرف إلى علم الدولة وكيفية رفعه وتحيته، واكتشاف الحب الطفلي الأول، وكلّها أمور تربوية وتعليمية مهمة على بساطتها.

أما بقية اللوحات، فتروي لنا قصة العم أبي زكي الذي عاش يتيمًا، وكيف جاهد في الحياة إلى أن اشترى الباص (البوسطة)، بعد أن عمل بمباركة وتوجيه شيخ القرية في "كافيتيريا" لأحد أبناء قريته في العاصمة

لمدة سنة، ودفع ربع ثمن الباص، والباقي بالتقسيط لمدة خمس سنوات، وهو لا يزال لا يعلم شيئًا عن الجندي المجهول الذي دفع المبلغ الأكبر من ثمن الباص، وهو والدته الّتي عملت في الحقول عند الآخرين بعد وفاة زوجها لتعيل أطفالها الأيتام، وكأني بالكاتب، في نهاية الرواية، يعيدنا إلى بدايتها، ففي اللوحة الأولى التفاحة الّتي حاول أحفاد مَن زرعتها الاستعجال باقتلاعها عندما شاخت، ولم تعد مثمرة، وهنا النهاية في الأم الّتي شقيت، وتعبت، وحافظت، وربّت، وعلّمت، وبنت، وبسرية تامة، دون أن يكون لها أيّ ذكر، فهل تستحق الرعاية أم لا؟!

وفي هذه اللوحات، حثّ على الجد، والاجتهاد، والمثابرة، والاستفادة من تجارب الكبار، والاستعانة بنصائح وتوجيهات ذوي الرأي والخبرة، والاستعانة بقدرات وخبرات الخيرين من الأقارب والأصدقاء، وأن الهجرة من الريف إلى المدينة، أو إلى بلدان أخرى، يجب أن تكون مؤقتة لجلب المال الذي يتعسر الحصول عليه في مكان السكن، ثم العودة إلى مسقط الرأس للبناء، ومواصلة الحياة الكريمة. وكذلك فيها تحذير من الانجرار خلف الإشاعة، وعدم التحقق من الأمور؛ لأن في ذلك ظلمًا للآخرين.

الأسلوب

لجأ الكاتب إلى أسلوب القص السلس، من خلال تجزئة الرواية إلى أقاصيص يمكن قراءة كلّ منها منفردة، لتتحد مشكّلة رواية مشوّقة، وذات قِيمٍ عالية. ولغة الكاتب بليغة منسابة، وإن لجأ في البداية إلى وصف البيت بطريقة مدهشة، حتى خلته يصف قصرًا، وليس بيتًا قرويًّا. والرواية يطغى عليها عنصر التشويق، الذي يجبر القارئ على متابعتها، ففيها تسلية للقارئ، وفيها تعليم وتربية جاءا بين السطور ومن خلال المعاني، وهذا هو الإبداع.

(ج.س)

Obeikandl.com